المحاضرة الثانية: الحرف في الجزائر: أدوارها

ترجع أهمية الحرف في الاقتصاد الى كونها تمثل حلقة وصل اساسية بين الانتاج والمبادلات التجارية، فجزء كبير من الانتاج الفلاحي يمر عبر الصناعات الغذائية وغيرها قبل ذهابه للاسواق والحوانيت، كما يوفر هذا القطاع الكثير من المصنوعات للسوق المحلية والخارجية، وفي المقابل يعتمد الحرفيون على مختلف المواد الاولية التي يوفرها القطاع الفلاحي، أو يجلبها التجار من داخل البلاد وخارجها.

كما لا يخفى على الباحث في الموضوع الدور الاجتماعي والحضاري الذي لعبته التنظيمات الحرفية في المدينة وخارجها، عندما كانت تتعاون مع مختلف مؤسسات الدولة والمجتمع في شبكة من العلاقات المتداخلة، تمكنها من المحافظة على حقوقها والمشاركة في تنمية النشاط الاقتصادي، وحماية المجتمع من كل ما يهدد بنيانه وتماسكه.

تقدم لنا وثائق المحاكم الشرعية وسجلات البايلك قائمة للجماعات الحرفية التي كانت موجودة بالمدينة وقد أوردها بعض الباحثين في قائمة من 106 جماعة(1)، وقد غطت تلك التنظيمات حاجة مجتمع المدينة وضواحيها، وتعاونت فيما بينها وبين مؤسسات الدولة والمجتمع اقتصاديا واجتماعيا، فساهمت في دفع الضرائب وتنظيم الانشطة الاقتصادية بالمدينة والسهر على حقوق الحرفيين، والمشاركة في الحراسة الليلية للمدينة وغيرها.

من مظاهر التنظيم الحرفي هو تقسيم العمل، وتفرع الجماعة الحرفية الى عدد من الجماعات، تختص كل واحدة منها بنوع من العمل، أو بمنطقة اقتصادية جغرافية محددة، –السوق او الحارة أو الزقاق- ضمن الاهتمام والاختصاص العام للجماعة الحرفية، نجد هذا عند أغلب الحرف، مثل حرفة الحمالين والدلالين والحرارين والبنائين والصناعة الجلدية وصناعة الاسلحة(2).

---

[1] - عند عائشة غطاس، الحرف والحرفيون في مدينة الجزائر(1700-1830)، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار، 2012 ص 110-111.

[2] - Touati Houari, Les Corporations de Métiers à Alger à l'époque Ottomane, Revue d'histoire Maghrébine, N° 45-46,Juin 1987, pp. 271,272.

تعاونت التنظيمات مع العلماء والقضاة ممثلي الهيئات الدينية والثقافية، ومع آغا العرب وشيخ البلد والباي والداي ممثلي المؤسسات الادارية المحلية والمركزية، وغطي ذلك التعاون كل ما يتعلق بالبناء الاقتصادي والاجتماعي في المدينة، فتعقد لأجل ذلك المجالس في الاسواق والمحاكم والمجلس العلمي، وأحيانا حتى بقصر الداي الذي كثيرا ما يتدخل ويشرف بنفسه على حل النزاعات بين مختلف الفئات، وتحديد أسعار المواد الضرورية، سواء الغذائية منها كالقمح والخبز والتمر، أو المعدة للصناعات الحرفية كالفحم والجلود، دون إلغاء دور الحرف الاقتصادي والاجتماعي، مع التعاون بين كل تلك المؤسسات وأعيان المدينة في شبكة من العلاقات الحضارية، تنبئ بوجود مؤسسات مجتمع متكاملة وقادرة على مواجهة كل التحديات الطارئة.

لقد شكلت النقابات الحرفية آلية ضرورية في المجتمع، بالتعاون مع السلطة السياسية والقضائية في تسيير شؤون المدينة الاقتصادية والاجتماعية، فكانت الاتفاقات التي تضمنها قانون الاسواق تشكل مرجعية للحرفيين والقضاة معا في حل الكثير من المنازعات؛ ولذلك فان غياب تلك النقابات في الريف مع فقدان المبادرة، وتنوع وسائل ومستوى معيشة السكان، حدد دور مهن الريف في المبادلات التجارية التي لم تتجاوز الاسواق المحلية، كما غاب دورها في العلاقات الاجتماعية.

ان هذا الدور للقطاع الحرفي سيتراجع مع كارثة الاحتلال تدريجيا "كالمصباح الذي يفقد زيته"(3)، هذا التراجع الذي يمس الامكانيات الاقتصادية للقطاع والدور الاجتماعي للحرفيين، وهو ما كشفت عنه سجلات المحاكم الشرعية والمصادرة التاريخية والدراسات الأكاديمية.

ان ابرز ما ميّز النشاط الحرفي في الجزائر في الفترة الحديثة هو مساهم الكثير من الحرفيين في توفير احتياجات الجيش في الصناعات الحرفية والخشبية والحديدية وبعض الحرف الخدماتية كالحفافة، بل انضم عدد من الحرفيين للجيش، وبالمقابل انضمام بعض أفراد المؤسسة

---

[3] - العبارة لقولفن لوسيان Lucien Golvin), Aspects de l’artisanat en Afrique du nord, Presses universitaires, Paris, 1957, p. 28.

العسكرية للقطاع الحرفي، وتبرز هذه الميزة خاصة في المهن المرتبطة بحاجات الجيش، سواء كانت حرف صناعية او خدماتية.

كانت العائلات المشرفة على النشاطات الحرفية من العائلات الثرية، التي مارست بالاضافة الى الحرف النشاط البحري والتجارة، وهو ما يبرر سيطرة فئة التجار على أمانات الحرف وعلى السوق المحلية والوضع الاقتصادي عامة، وهي ميزة مشتركة بين البلدان العربية.

تميزت الصناعات الحرفية في الريف بمحدودية الانتاج رغم تنوعه، باعتباره موجه للاستهلاك المحلي بالدرجة الاولى؛ ومن مميزات المجتمع الحرفي الحفاظ على التقاليد الموروثة في الصنايع، ومنها استمرارية الحرفة في العائلة، لاسيما في العائلات التي تولت امانة الصنعة، وهي ظاهرة كانت موجودة في وظائف أخرى مثل الهيئات العلمية والعسكرية وغيرها، كما كانت هناك قيم أخلاقية وحضارية ساهم الحرفيون بالتعاون مع قوى المجتمع في الحفاظ عليها، كقيم التكافل والتضامن، والوقوف المادي والادبي مع الحرفيين عند حدوث المصائب والازمات، والتعاون في اطار الجماعات الحرفية في تسيير شؤون المدينة الاقتصادية والاجتماعية. ان هذا الدور للقطاع الحرفي سيتراجع تدريجيا بعد الاحتلال، هذا التراجع الذي يمس الامكانيات الاقتصادية للقطاع والدور الاجتماعي للحرفيين.

أهم المراجع لمحاضرات الحرف في الجزائر في الفترة الحديثة

- سعيدوني ناصر الدين، الحياة الريفية باقليم مدينة الجزائر (دار السلطان) أواخر العهد العثماني 1791-1830، دار البصائر، الجزائر، 2013.
- غطاس عائشة، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830 مقاربة اجتماعية - اقتصادية، المؤسسة الوطنية للاتصال النشر والاشهار، رويبة، 2012.
- عبد الباسط قلفاط، أزمات الحرف في مدينة الجزائر نهاية القرن19 من خلال السجلات المخطوطة للمحاكم الشرعية، المجلة الجزائرية للمخطوطات، ع 15، ديسمبر 2016.

محفوظ رموم، النشاط الفلاحي والحرفي ونمط الانتاج في الجزائر بين 1700-1830، مجلة البحث التاريخي، ع، 13-14، السنة: 2016-2017.

المحاضرة التالية حول التجارة والطرق التجارية في الجزائر في الفترة الحديثة